بوارق العرفان في مناجاة شعبان

بلال نعيم

مؤسسة المروة
الوثقى

مكتبة
مؤمن قريش

بوارق العرفان

في مناجاة شعبان

مؤسسة العروة الوثقى ــ برج البراجنة ــ شارع حاطوم ــ ملك حرب

١ ـ الإهـــداء

إلى قطب دائرة الوجود في مـراتبه المختلفة وعوالمه المتعددة، إلى سلطـان الكون وسيّـد المشرقين والأمير على الكائنـات، إلى سبيل السلوك، والسبب المتصل بين الأرض والسماء، إلى الـروح الحقّة للممكنـات، والشمس التي ينعم بـدفئها الأحياء، إلى إمـام الأنس والجان مولانا صاحب الزمان أرواحنا فداه. . .

* * *

٢ ـ المناجاة الشعبانية.

وهي مناجاة مروية عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد ناجى بها الأئمة الأطهار من ولده عليهم السلام، وتتضمن هذه المناجاة روائع المعاني السلوكية والعبادية التي تحكي العلاقة مع الرّب العظيم بأسلوبٍ لا مثيل له في جمال العبارة وصدق الكلام، وفيها من آداب السير والسلوك ما يقصر ذهن أمثالي عن بلوغه ويقف أمثالي عاجزين عن إدراك الشيء اليسير منه فكيف بالغوص في أبعاده واستشفاف أرجائه إنها أنشودة حبّ ومناجاةٌ بين حبيبين، عارفٌ يسبح في أقطار السموات وإله عزيزٌ يُطلب في كل الأنحاء، حيث الطرق إليه بعدد أنفاس الخلائق. ولعظم شأن هذه المناجاة، وللفائدة الجمّة المترتبة على المداومة عليها والدعاء بها، فقد أكّد الإمام الراحل سيد عرفاء هذه القرون على المؤمنين السالكين ضرورة الدوام على قراءتها أو قراءة أجزاءٍ منها لا سيما في معراج المؤمن أي صلاته، حيث مقاطعها تزيد السفر الصلاتي لذة وحلاوة.

أما نصّ هذه المناجاة:

«اللهم صلّ على محمد وآل محمد، واسمع دعائي إذا دعوتك، واسمع ندائي إذا ناديتك. واقبل عليّ إذا ناجيتك فقد هربت إليك ووقفت بين يديك مستكيناً لك متضرعاً إليك، راجياً لما لديك ثوابي، وتعلم ما في نفسي وتخبر حاجتي وتعرف

ضميري، ولا يخفى عليك أمر منقلبي ومثواي وما أريد أن أبدىء به من منطقي وأتفوّه به من طلبتي وأرجوه لعاقبتي، وقد جرت مقاديرك عليّ يا سيدي فيما يكون مني إلى آخر عمري من سريرتي وعلانيتي، وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضري، إلهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزقني وإن خذلتني فمن ذا الذي ينصرني، إلهي أعوذ بك من غضبك وحلول سخطك، إلهي إن كنتُ غير مستأهلٍ لرحمتك فأنت أهلٌ أن تجود عليّ بفضل سعتك، إلهي كأني بنفسي واقفةٌ بين يديك وقد أظلّها حسن توكلي عليك، فقلت (ففعلت) ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك، إلهي إنْ عفوت فمن أولى منك بالعفو، وإن كان قد دنا أجلي ولم يدنني منك عملي فقد جعلت الإقرار بالذنب إليك وسيلتي، إلهي قد جرْتُ على نفسي في الطلب لها فلها الويل إن لم تغفر لها، إلهي لم يزل برّك عليَّ أيام حياتي فلا تقطع برّك عنّي في مماتي، إلهي كيف آيس من حسن نظرك لي بعد مماتي وأنت لم تولّني إلاّ الجميل في حياتي، إلهي تولّ من أمري ما أنت أهله وعدْ عليّ بفضلك على مذنبٍ قد غمره جهله، إلهي قد سترت عليّ ذنوباً في الدنيا وأنا أحوج إلى سترها عليّ منك في الأخرى، إلهي قد أحسنت إليّ إذْ لم تظهرها لأحدٍ من عبادك الصالحين فلا تفضحني يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، إلهي جودك بسط أملي وعفوك أفضل من عملي، إلهي فسرّني بلقائك يوم تقضي فيه بين عبادك، إلهي اعتذاري إليك اعتذار من لم يستغنِ عن قبول عذره، فاقبل عذري يا أكرم من اعتذر إليه المسيئون، إليه لا تردّ حاجتي ولا تخيّب طمعي ولا تقطع منك رجائي وأملي، إلهي لو أردت هواني لم تهدني ولو أردت فضيحتي لم تعافني، إلهي ما أظنك تردني في حاجةٍ قد أفنيت عمري في طلبها منك، إليه فلك الحمد أبداً أبداً دائماً سرمداً يزيد ولا يبيد كما تحبّ وترضى، إليه إن أخذتني بجرمي أخذتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أخذتك بمغفرتك وإن أدخلتني النار أعلمت أهلها أني أحبّك، إليه إن كان صغر في جنب طاعتك عملي فقد كبر في جنب رجائك أملي، إلهي كيف أنقلب من عندك بالخيبة محروماً فقد كان حسن ظني بجودك أن تقلبني بالنجاة مرحوماً، إليه وقد أفنيت عمري في شرّة السهو عنك وأبليت شبابي في سكرة التباعد منك، إلهي فلم أستيقظ أيام اغتراري بك وركوني إلى سبيل سخطك إلهي وأنا عبدك وابن عبدك قائمٌ بين

يديك متوسلٌ بكرمك إليك، إلهي أنا عبدٌ أتنصّل إليك مما كنت أواجهك به من قلة استحيائي من نظرك وأطلب العفو منك إذ العفو نعت لكرمك، إليه لم يكن لي حولٌ فأنتقل بـه عن معصيتك إلاّ في وقـت أيقظتني لمحبتك، وكما أردْتَ أن أكـون كنت فشكرتك بإدخـالي في كرمك ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلـة عنك، إلهي أنظر إليّ نظر من ناديته فأجابك واستعملته بمعونتـك فأطاعك يا قريباً لا يبعد عن المغترّ به ويا جواداً لا يبخل عمن رجا ثوابه، إلهي هبْ لي قلباً يـدنيه منك شوقه ولساناً يُرفع إليك صدقه ونظراً يقرّبه منك حقّه، إلهي إنّ من تعرّف بك غير مجهول ومن لاذ بك غير مخذول ومن أقبلْتَ عليـه غير مملـول، إلهي إنّ مـن انتهج بك لمستنير وإنّ من اعتصم بك لمستجير وقد لـذت بك يا إلهي فـلا تخيّب ظني من رحمتك ولا تحجبني عن رأفتك إلهي أقمني في أهـل ولايتك مقـام من رجـا الـزيـادة من محبتك، إلهي وألهمني ولهاً بـذكرك إلى ذكـرك وأجعل همتي في روح نجاح اسمائك ومحلّ قـدسك، إلهي بك عليك إلا ألحقتني بمحلّ أهل طاعتك والمثوى الصـالح من مرضاتك فإني لا أقدر لنفسي دفعـاً ولا أملك لها نفعاً، إلهي أنا عبـدك الضعيف المذنب ومملوكك المنيب المعيب فلا تجعلني ممّن صرفـت عنه وجهك وحجبه سهـوه عن عفوك، إلهي هبْ لي كمال الانقطـاع إليك، وأنر أبصـار قلوبنا بضيـاء نظرهـا إليك، حتى تخرق أبصار القلـوب حجب النـور فتصل إلى معدن العظمـة وتصير أرواحنا معلقـةً بعزّ قدسك، إلهي واجعلني ممّن نـاديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فنـاجيته سراً وعمل لك جهراً، إلهي لم أسلّط على حسن ظني قنوط الأياس ولا أنقطع رجائي من جميل كرمك، إلهي إن كانت الخطايا قد أسقطتني لديك فاصفح عني بحسن توكلي عليك، إلهي إن حطّتني الـذنـوب من مكـارم لطفك فقـد نبهني اليقين إلى كـرم عطفك، إلهي إن أنـامتني الغفلة عن الاستعـداد للقائك فقـد نبهتني المعرفـة بكرم آلائك، إلهي إن دعاني إلى النـار عظيم عقابك فقد دعـاني إلى الجنة جـزيل ثوابك، إلهي فلك أسأل وإليك أبتهل وأرغب أن تصلّي على محمد وآل محمد وأن تجعلني ممن يـديم ذكـرك ولا ينقض عهـدك ولا يغفل عن شكـرك ولا يستخـف بأمـرك، إلهي والحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحـرفاً ومنك خائفاً مراقباً يا ذا الجلال والإكرام وصلّى الله على محمّد رسوله وآله الطاهرين وسلّم تسليماً كثيراً. .

***

٣ ـ تحقيق الصلاة على محمد وآله ومقام أهل البيت عليهم السلام

«اللهم صلّ على محمد وآل محمد» كلامٌ نقرأه أول كل دعاء وآخره، كما نقرأه أمام كل حاجةٍ نطلبها حيث نقدم الحوائج بين يدي أبواب الحوائج إلى الله الائمة المعصومين أهل البيت عليهم السلام.

وإنّ المعنى اللغوي لهذا الدعاء المختصر: «اللهم» يا الله حرف نداء ومنادى، صلّ فعل أمر من الصلاة التي هي المصدر ومعناها الفعل الذي يمثّل صلةً بين العبد والمعبود وتطلق الصلاة على المناجاة والدعاء وعلى مطلق العبادة.

وظاهر الكلام في هذه الجملة من الدعاء، إنها طلبٌ من الله سبحانه لديمومة المقام الرفيع الذي وهبه الله للخيرة من خلقه أهل البيت عليهم السلام أما يتضمنه هذا الكلام فعميقٌ بعيد الغور يعود إلى المقام المحمود للأئمة الأطهار، هذا المقام الذي هو أرفع من كل المقامات، فلا يقاس بهم ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل، إنه مقام القدر والتوسط والسببية والعروة الوثقى والعليّة والإسم الأعظم وقاب قوسين أو أدنى، والمشيئة، والفيض المنبسط والحضرة الواحدية والعقل الأول، والوجود المنبسط، وأول التعينات، وإلى ما هنالك من تسميات ورموز. من هنا كان لهذه الجملة من الدعاء فوائد جمّة، على مستوى السلوك وأثارٌ عمليّة وعلميّة عديدة على

مستوى السير إلى الله، فهذه الصلاة على النبي وآله تذهب النفاق من القلوب والنفاق من الحجب الكثيفة والعوائق المانعة عن السلوك، وهذه الصلاة من الاذكار الهامة للذاكرين والمتعبدين وللدوام عليها جليل الأثر على القلوب، وهذه الصلاة سببٌ في استجابة الدعاء وقبول الأعمال ووصول الطلبات. ومن هنا استحب ذكر هذه الصلاة في مقدمة كل دعاء وفي آخره، وإنّ كل دعاء لم يُفتتح بهذه الصلاة يبقى يحوم فوق رأس داعيه حتى يصلّي على محمد وآله عليهم أفضل الصلوات والتحيات.

أما تحقيق ما يتضمنه هذا القول الجليل «اللهم صلّ على محمد وآل محمد» فيرجع كما ذكرنا إلى تحقيق المقام السامي لأهل البيت عليهم السلام وإنّ أصل هذا المقام يعود إلى كونهم علةً للوجود، فالمطلوب إذن تحقيق وبحث هذه العليّة التي اصطفى سبحانه محمداً وآله لها، فهو عز شأنه كان متفرداً بالوجود، حيث لا مخلوق آخر سواه، وأحبّ سبحانه أن يُعرف وهذه المعرفة لا تتم إلاّ من خلال إيجاد إنتاج يدلّ عليه ويشهد على عظمته، مثال على ذلك أنّ الشاعر إذا أراد أن يُعرف بشاعريته فإنه يكتب قصيدة أو قصائد، وبمقدار ما تكون هذه القصائد موزونة وذات معانٍ جليلة بمقدار ما تكون الشاعرية لهذا الشاعر أرقى وأعظم. وهكذا فإنه سبحانه أنتج لغاية معرفته إنتاجاً مميزاً فيه الدلالة على العظمة اللامتناهية لليد الجبّارة للعزيز الحكيم هذا الانتاج هو الإنسان الذي خلقه الله على صورةٍ من مثله ليكون مثالاً صغيراً عن الصورة المطلقة للكبير الكبير، ولم يكن خلق هذا الإنسان عبثاً، بل جعل الله لخلقه غاية، هذه الغاية هي معرفته والقرب منه والهجرة إليه، وكما هو ثابتٌ في عقيدتنا إن الذات الالهية سرّ وغيب وبطون لا يستطيع أن يبلغ كنهها ملك أو نبي، بل حتى الحضرات المقدسة للنبي ولملائمة عليهم السلام لا تستطيع النظر إلى قدسية هذه الذات ولا تقدر أن تتطلّع عليها، إنها السرّ الأخفى والغيب المصون والعنقاء الذي لا حظّ لأحد في اصطيادها، فكيف يمكن لهذا الإنسان المصنوع بالتراب أن يرمق ربّ الأرباب؟!... إذن لكي تكون الغاية متحققةً من خلق هذا الإنسان لا بدّ للذات أن تستنيب عنها مقاماً اخر وحضرةً أخرى تكون بمثابة الخليفة

الخليفة والوسيلة والباب والوجه لهذه الذات وهذه الخليفة يكون لها وجهتان وجهةٌ باتجاه الذات لا يمكن لأحدٍ بلوغها، ووجهةٌ باتجاه الخلق هي جهة الظهور والإشراق والايجاد وهي الجهة الذي يُطلب من الإنسان أن يسعى ليصل إليها، وبذلك يكون قد وصل إلى الله، وكانت هذه الخليفة هي الخليفة المحمدية والحضرة المحمدية التي هي مقام الاسم الأعظم الجامع لأسماء الله وصفاته ولولا هذا المقام لانعدمت الغاية من خلق الإنسان لأنه بدونها لا يقدر أن يسعى ليتعرّف على الله، ومن هنا كان مقام أهل البيت عليهم السلام العليّة للوجود، فلولا وجودهم لانمحى كل ما هو دونهم من موجودات، ومن هنا كان وجود الإمام المعصوم الحافظ لوجود الدنيا وما عليها ولو غاب عن الأرض لماجت وساحت بأهلها، لأنّ المعصوم هو القطب والمحور للوجود ولو زال أو غاب لتناثرت أطراف الوجود التي يمسكها هذا القطب.

أما لماذا أودع أهل البيت عليهم السلام الأسماء والصفات الالهية؟

فالسبب يعود إلى استخلافهم عنه سبحانه للقيام بعملية الايجاد للعوالم السفلى من السموات والأرضين، أي للقيام بإنتاج الموجودات المتفرعة والموزعة في مراتب عديدة، وهذا العمل لا يتم إلاّ من خلال ملك هذا النائب المستخلف عن الذات لإيجاد الموجودات كافة صفات الذات وأسمائها، لأنّ الفعل أصله صفة ويتحوّل فيما بعد إلى فعل، كما لو ضربنا مثلاً، إني لو أردت أن أصنع طاولة فإنّ هذه الصناعة تكون في البداية عبارة عن علم وقدرة وحكمة وغيرها من الصفات ثم تتحول إلى طاولة وهكذا كل فعل من الأفعال، لذلك أودع سبحانه الصفات الجمالية والجلالية لحضرته الأقدسية في مقام الخليفة له في الظهور والإيجاد فكان مقام أهل البيت عليهم السلام مقام العلّة للوجود ومقام الأعظم من الأسماء الجامع للصفات والأسماء الالهية والماسك لزمامها.

وهكذا تصبح الصلاة على محمد وآل محمد تعني الدعاء بدوام المقام المحمود لأهل البيت عليهم السلام وهو مقام الإسم الأعظم الذي رمز إليه باسم «الله» وكأنّ المعنى يصبح دعاءً ببقاء الصلة بين مقام الله (الذي يرمز إلى الإسم الأعظم) وبين

مقام أهل البيت عليهم السلام .

* * *

٤ ـ بداية السلوك صفر اليدين

«واسمع دعائي إذا دعوتك واسمع ندائي إذا ناديتك وأقبل عليّ إذا ناجيتك».

أول خطوةٍ في طريق السلوك إلى الله هذا الطريق الشيّق والشاق في آنٍ معاً هي اعتبار الإنعدام للاستحقاق لدى السالك، أي اعتبار نفسه غير لائقةٍ لهذه الهجرة الجميلة من دار الظلام إلى النور المنبعث من معدن العظمة، وهذا التعامل مع النفس بجعلها غير مؤهّلةٍ للسلوك ولا تملك القدرة على ذلك ولا تستحق أخذ اليد من قِبله تعالى يجعل الإنسان السالك خائفاً منذ اللحظة الأولى لإقلاعه ومنذ الخطوة الأولى في سيره من أن يَعثر طريقه ومن أن يصطدم بعوائق كثيرة ومن العديلة والميتة السيئة ومن القواطع المتعددة في سبيله وما إلى هنالك من تفاصيل في تعرجات الطريق، وكل ذلك يجعل السالك يطلب دوماً سيما في بداية العمل التوفيق والسداد والقبول منه سبحانه ويطلب أن يستجيب له ربّه قبل أن يطلب الحاجة ويدعو بقبوله واستقبال صوته قبل أن يُطلق مطالبه، من هنا نجد أنّ هذه المناجاة العرفانية ذات الذوق العبادي الرفيع يفتتحها الأمير السيّد للعارفين عليه السلام بالطلب إلى الله عز شأنه أن يسمع منه دعاءه ونداءه وأن يُقبل عليه في مناجاته . .

وفي ظاهر الكلام جمالٌ لا بدّ من الوقوف عنده حيث يقول الأمير: واسمع دعائي إذا دعوتك، فالدعاء طلبٌ من السافل إلى العالي ومن الأدنى إلى الأعلى ومقابل

الدعاء الذي قد يعتريه الغفلة وعدم التوجّه والسهو يطلب الأمير من بارئه أن يسمع دعاءه. والنداء هو دعاء من كلا الطرفين من العالي إلى السافل ومن السافل إلى العالي وقد يعتريه ايضاً الغفلة وعدم التنبّه إلى اللفظ أو الذكر، وقد طلب الأمير بإزائه ايضاً أن يسمع الله نداءه، ويحتمل النداء عادةً معنى الاستغاثة التي يُحتمل فيها عدم اليقظة أيضاً، أما المناجاة فتختلف عن الدعاء وعن النداء في أنها خطابٌ قريبٌ بين متناجيين ولا تحتمل الغفلة والسهو وإنما هي إقبال من المناجي إلى الذي يناجيه بكل جوارحه وجوانحه وكأنها خطابٌ بين قلبين متحابين، ولذلك يطلب الأمير (ع) بإزاء مناجاته أن يقبل الله عليه لا أن يسمع له فقط كما هو الحال بإزاء الدعاء والنداء.

ويستفاد كما ذكرنا من هذه العبارات التي جاءت في بداية المناجاة أنها توقظ السالكين على جعل أنفسهم خالية من أي استحقاق وعلى الخوف من أحجار الطريق مما يجعلهم منذ البداية مشفقين على أنفسهم يخشون على سلوكهم فيدعون في بداية الرب العزيز أن يسمعهم وأن يستجيب لهم وأن يُقبل عليهم وأن يأخذ بأيديهم في هذا السفر الطويل. وهكذا كانت إحدى الصفات الأساسية للسالك أنه يقدّم رجليه وهو حاسبٌ أنه صفر اليدين لا حيلة له سوى قبول الله سعيه وسيره فيبيت دوماً خائفاً مشفقاً من عمله، همّه الدائم أن يقبل الله منه أعماله.

* * *

٥ ـ أهم مقدمات السلوك

إنّ السلوك الحقيقي هو عبارةٌ عن العبادة لله عز شأنه، والعبادة هي نفسها الطاعة من خلال أداء ما أمر الله والانتهاء عما نهى، وقد عبّر عن ذلك سبحانه في قوله ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[١]، فهذه الغاية التي حدّدها ذو الجلال والإكرام بالسعي لمعرفته أي بالسلوك إليه تحوّلت عملياً إلى عبادة بحيث أن المعرفة عملياً لا تتحقق إلا بالعبادة.

ومن أهم مقدمات هذه العبادة أمران اثنان هما: الرهبة والرغبة أو الرجاء والخوف، ولذلك يقدّم أمير المؤمنين (ع) في مقدّمة سلوكه هذه المناجاة ذكر هذين الأمرين المهمّين والضرورين في الخطوات الأولى للسلوك حيث قال (ع): «فقد هربت إليك ووقفت بين يديك مستكيناً لك متضرعاً إليك راجياً لما لديك ثوابي».

أي بعد الهروب إلى الله والهجرة إليه من دار الوحشة والغربة وبعد الوقوف بين يديه للانطلاق في الرحلة، يقف الراحل إلى ربه والكادح له وإليه على قدمي الخوف والرجاء، إنّ هاتين القدمين أساسيتان في المشي وبدونهما لا يتمكن الإنسان المؤمن من السير، فالقيام للصلاة مثلاً يكون على هاتين القدمين وكذلك الوقوف لأي عبادة، يجب أن يكون منطلق العلاقة مع العزيز بعد التوجه نحوه علاقة خشية فيها

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

المسكنة والتضرع كما عبّر أمير المؤمنين (ع) حيث قال مستكيناً لك متضرعاً إليك، وكذلك علاقة رجاء ورغبة حيث قال راجياً لما لديك ثوابي، والأمر واضحٌ في تحقيقه بيّنٌ في فائدته، فالرهبة أساسها الحبّ كما الرجاء منطلقه الحبّ والرهبة منبعثةٌ من الخوف من الحبيب كما الرغبة، فكلاهما ينطلقان من حبّ الله، ومن الخشية على دوام العلاقة الجيدة مع هذا الحبيب، لذلك هما ضروريان في مقام بقاء هذا الحبّ، لأنّ من تعلّق قلبه بشيء، كانت رهبته منه ورغبته فيه شديدةً بمقدار هذا التعلّق وهذا الحبّ، أما فائدتها أيضاً فجليّةٌ، فالرهبة للحبيب تبعث على الاجتهاد للوصول إليه والمقام عنده والفناء بين يديه، وهذا الاجتهاد باعث على العمل بما يحبّ ويرضى من الطاعات واجتناب المحرمات والمعصيات.

والرغبة باعثة على الأمل، والأمل داعٍ على إكمال السير بسلام وداعٍ إلى قطع المسافات بسرعة وإلى سهولة الالتحاق بالملأ الأعلى، وبالرفيق العزيز، فكلما رغب إلى الله واشتاق إليه كلما عجّل السير نحوه وإليه فكلا الرهبة والرغبة ضروريان في مقدمة السلوك وبما أن السلوك هو العبادة فيصبحان ضروريان في مقدمة كل عبادة فتأمل أيها المصلّي في قيامك على أي القدمين تقف وبأيّ العينين تنظر إليه سبحانه في عبادتك.

وقد أخبر الامام الصادق عن الخوف والرجاء في هذا الحديث حيث قال: «الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً وإليه راجياً، وهما جناحا الايمان يطير بهما العبد المحقّق (السائر إلى الحقيقة) إلى رضوان الله وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله تعالى ووعيده، والخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده، والرجاء داعي فضل الله وهو يحيى القلب (اي الرجاء) والخوف يميت النفس (اي يميت شهواتها)»[٢]..

* * *

(٢) مصباح الشريعة ـ ص ١٨٠.

٦ ـ السالك تلازمه المراقبة

إنّ معـرفة الحقّ الـذي يتم السفر إليـه ضروريـة من أجل حسن السير وسلامـة السفر، فالله سبحانـه الذي هو غاية آمال العارفين والذي لقـاؤه نهاية المنى وغايته، يعرف سرّنا وجهرنـا ومطّلع على خفايا أمورنا بل أنّ علمه بأحـوالنا ليس علماً إجمالياً بواقع الحال وإنّما علمٌ تفصيليٌ يطّلع من خلاله على السرائر وعلى مكنونات الأنفس وعلى أسرارها، والالتفات إلى هـذه الحقيقة الحقة يؤدّي إلى التـدبّر في الخطوات وإلى الدقّة في الأعمال فالله سبحانه يـراقب كل حركات السالك إليه ويطّلع على تفاصيل نوايـاه وعلى ضميره المحرّك له وعلى عزمـه وإرادته، لذا فإنّ السالك عليـه أن يراقب نفسه لمراقبة الله له كي لا تزل قدمه فيهوى والله ينظر إليه.

من هنـا كان تأكيـد الأمير (ع) في المقدمـة لمناجـاته على الاعتراف بهذه الحقيقـة الواقعة وهي اطّلاع الله على كل شيء عنده من الظاهر والباطن والسرّ والعلن والجهر والاخفات، وهو يقول «وتعلم مـا في نفسي وتخبر حاجتي وتعرف ضميري ولا يخفى عليك أمـر منقلبي ومثواي وما أريـد أن ابدىء بـه من منطقي وأتفوه بـه من طلبتي وأرجوه لعاقبتي وقد جرت مقاديـرك عليّ يا سيدي فيما يكون منّي إلى آخر عمري من سريرتي وعلانيتي» وما أحلى هذا الاستعمال لمفردات العلم الالهي بحال السالك إليه فهو يذكر العلم لواقع النفس، والخبر لـواقع الحاجة والمعرفة للضمير، حيث يتضح من خلال هـذه المفردات أنّ العلم يعني المعـرفة ولكن بالتفـاصيل وبالخفـايا حيث

استعمله في مقام النفس، وهذه النفس العلم بها يحتاج إلى الغوص في خباياها فهي ليست من الملكات الظاهرة حتى تنظر بالعين أو حتى تُعلم بالحسّ بل لا بدّ من النفاد في أعماقها كي يتم إدراكها وإدراك شؤونها، ويتضح أيضاً أنّ الخبر هو علم ولكن يختص بالأمر الطارىء على النفس المعلومة لديه سبحانه، لأنّ الحاجة تتبدّل وتتغيّر حسب هذه النفس التي توجّه الحاجة، وكذلك فإنّ المعرفة هي عبارة عن العلم بوجهة هذه النفس وهو الضمير الذي يحرّكها.

وهكذا تكون الفائدة العملية من الالتفات إلى إطلاع الباري عز اسمه على كل شيء لدى السالك هي مراقبة السالك نفسه وأعماله ليكون أقرب إلى الصواب ومن هذه المراقبة تنشأ المحاسبة للنفس حيث من الضروريّ الوقوف عند الهفوات التي تمرّ مع الغفلة عن النفس والسهو عن أفعالها، وكلاهما أي المراقبة والمحاسبة يقرّبان من العصمة المستحبة التي هي المقام الرفيع الذي يصله السالك في نهايات سلوكه حيث يصبح شبه معصوم لأنّه يستطيع عندها أن لا يفوّت على نفسه أي طاعة ويقدر أن يمسك بزمام نفسه فلا يوقعها بأيّ معصية . .

* * *

٧ ـ التوحيد الاسمائي وتحقيق مراتب التوحيد

«وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضري، إلهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزقني وإن خذلتني فمن ذا الذي ينصرني».

التوحيد هو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وهو في الحقيقة العمل بوحي هذه الشهادة وتطبيق مستلزماتها من الاخلاص ونفي الشرك.

وبما أنّ التوحيد يلازمه الإخلاص، وبما أنّ الإخلاص له مراتبه، فقد جعل علماؤنا الأفاضل مراتب للتوحيد هي نفسها مراتب الإخلاص، حيث درجات التوحيد هي أمور نظرية تطبّق عملياً من خلال درجات الإخلاص.

وقد قسّموا هذا التوحيد تبعاً لمراتب الوجود، وتقسيمات عالم الايجاد إلى ثلاثة أقسام:

ـ توحيد أفعالي: يشهد من خلاله المؤمن بأنّ الأفعال هي صنع الله وإنتاجه وأنه هو الذي خلق هذه الموجودات الممكنة المنتشرة في السموات وفي الأرضين وبينهما، وهذا التوحيد الافعالي له معانٍ متعددة ترادفه في البرامج العملية للسلوك أو في تقدير مراتب الايجاد، وهذه المعاني منها القيام في الصلاة، وعالم الملك والناسوت من عوالم الايجاد، والتسبيح في الذكر حيث النظر إلى أفعاله الدالة على عظمته تدفع إلى قول سبحان الله أي الى تسبيحه.

ـ توحيد أسمائي صفاتي: وهي درجة أرقى من الأولى، وهو عبارة عن الشهادة بأن صفات الجلال والجمال كلها لله وأنّ صفات غيره ظلّ صفاته وأن ليس لغيره من الصفات شيء وأنّ الله هو المقدّر والباسط والرازق والمميت والمحيي والذي يهب الصحة والذي يُمرض ويشفي ويضحك ويبكي وهو المؤثر في كل شيء وليس لغيره التأثير إلا بقدرته ومن خلال تقديره سبحانه ولعلّ هذه القطعة من المناجاة فيها تفصيل للتوحيد الاسمائي حيث يقول الأمير (ع) وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضرّي أي لا أجد غيرك يستطيع أن يقدّم أو يؤخّر شيئاً عندي، وفي التفصيل أنه لو أردت حرماني وقدرّت علي ذلك فمن يستطيع أن يرزقني ويغيّر هذا التقدير لك، وأنك لو أردت خذلاني وقدّرت لي ذلك فمن يستطيع أن يبدّل هذا الخذلان إلى نصر، لا أحد يقدر، بل كل التقديرات وكل المشيئة هي بيدك، وليس لأحد تدخّل فيها أو قدرةٌ عليها.

ويرادف هذه الدرجة من التوحيد في ميدان السلوك وفي مراتب الايجاد الركوع في الصلاة، وعالم الملكوت أو عالم الأنفس والعقول، وفي الذكر يرادفه الحمد حيث الصفات هي أصل النعم والتسخير للمخلوقات من أجل الإنسان ومن هنا تستحق الحمد.

ـ التوحيد الذاتي: وهو الدرجة الثالثة والأخيرة والأرقى من درجات التوحيد وهي عبارة عن المحو في ذات الله ورؤية هذه الذات دون سواها بحيث لا يرى السالك نفسه أو غيره، بل لا يرى تحققاً لشيء ويرى كل الأشياء وهماً وخيالاً وعدماً، وتذوب كل الأشياء في ذات الله وتنمحي وهذه نهاية السلوك وغايته.

ويرادف هذه الرتبة السامية من التوحيد السجود في الصلاة، وعالم اللاهوت أو عالم الأرواح وفي الذكر يرادفه التكبير أي الله أكبر من كل شيء.

وكما ذكرنا سابقاً أنّ كل مرتبة من مراتب التوحيد يقابلها مرتبةٌ من الإخلاص ومن هنا كلما ترقى السالك في سلوكه كانت درجة إخلاصه أسمى وتُعرف سلامة السير من خلال الإخلاص لأنّ مراتب السير هي نفسها مراتب التوحيد، حيث يتم قطع الأشواط الثلاثة للوصول إليه عز شأنه من الأفعال إلى الأسماء والصفات إلى الذات وهناك يكون المحو عند باب الذات حيث يصبح الواصل نوراً من الأنوار الشامخة التي تسبح في اللاهوت تقدس الله وتمجّده.

٨ ـ مما يحصل التعوّذ عند السالك؟

«إلهي أعوذ بك من غضبك وحلول سخطك».

أثناء السلوك يجب الالتفات إلى خطورة مسألة هامة قد تؤدي إلى إعاقة السير وإلى تعطيله بالمطلق هذه المسألة هي الوقوع بما يوجب غضب الله وحلول سخطه لأنّ هذا الغضب وهذا السخط إذا حلاّ يعني أنّ تمام العلاقة مع الله قد انقطعت ولم يبقَ هناك أي رابط ولو بسيط يستطيع الإنسان من خلاله أن يعيد التمسك به لاكمال السير ولو ببطء من أجل الوصول إلى الله. لأجل ذلك ذكر أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل في مقام الحديث عن غضب الله «وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض، فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين». نعم هذا العبد لا يقدر أن يتجاوز الظلام الدامس الذي يحل في الطريق بحلول سخط الله ليعلن هذا الظلام عن انقطاع الطريق وعن استحالة الاكمال إلى الامام وعن الرجوع إلى الوراء، من هنا كان من الضروري الالتفات إلى الذنوب الهدامة الهاتكة التي لا تُجبَرْ. اللهم لا تبتلنا يا الله لانه لا طاقة لنا على الخروج من دائرة محبتك، تُرى قد استطاع كثيرٌ من المذنبين أن يتوبوا وتاب الله عليهم على الرغم من أنّ جرائمهم وذنوبهم كانت كبيرة وتستوجب النار ومع ذلك تمت التوبة لله عليهم وزالت آثار الذنوب، فماذا نقول إذن لذنب ظلم الزهراء (ع) ولذنب قتل الحسين (ع) ولذنب سبي زينب (ع) هل لأصحاب هذه الذنوب من توبة تنفع وهل يقبل

الله هكـذا توبـة؟! أم هل يـوفق أمثال هـؤلاء إلى التوبـة؟! لا إنها الشقـاوة الأبديـة باستحقـاق العذاب الدائم نتيجة اقتراف أبشع الجرائم بحقّ أوليـاء الله المعصومين، من هنا ضرورة الالتفـات إلى عدم ظلم العبـاد سيما المؤمنين منهم، لأنّ بينهم أولياء لله، وإنّ هدم الكعبـة سبعين مرة أو أكثـر لأهون عنـد الله من أذية مؤمـنٍ صالح. فليتدبر السـالك أمره ليلتفت إلى ذنوب عواقبهـا وخيمة لا تعرقل السير فحسب بل تقطعه.

* * *

٩ ـ استشفاف اللقاء وشهوده

«الهي كأني بنفسي واقفةٌ بين يديك وقد أظلّهـا حسن توكلي عليك فقلت ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك، إلهي إن عفوت فمن أولى منك بالعفو».

من المسائل التي تساعد على ازدياد الشوق إلى الحبيب أثناء السفر هو القدرة على استشفاف معالم لقـائه وجمال هذا اللقاء ولذة حصـوله، وإنّ السالك إلى الله يُعمل دوماً بصيرتـه ويقينه لاستشفاف هذا اللقـاء وعيشه ولو قبل حصولـه، من هنا عبّر أمير المؤمنين (ع) في وصفه للمتقين «هم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيهـا معذبون» وأيضاً يذكرنا بذلك مـا قاله الشاب اليقيني رداً على سؤال الـرسول صلوات الله عليـه عندما سألـه عن سبب نحولـه وعن عينيه الغائرتين فأجابـه الشاب أنه اليقين، فسأله النبي عليـه أفضل الصلوات والتحيات عن عـلامة يقينـه فأجاب الشـاب «كأني أنظر إلى عـرش ربي وقد نصب للحسـاب وحشر الخلائق لـذلك وأنـا فيهم وكـأني أنظـر إلى أهل الجنـة يتمتعـون في الجنـة ويتعارفون على الآرائك متكئون...»[٣].

وهكذا فالسـالك يقرب قلبه من الحبيب قبل أن يصل ويترك روحه تـرفرف فوق خيـام الحبيب قبل أن يحطّ فيهـا. من هنا كـان الـوصف في أجسـاد قلوبها معلقـةٌ

(٣) قصص الأبرار ـ ص ٩٠.

بالمحل الأعلى، ولهذا الانطباع لصوره اللقاء في القلب الأثر الكبير في تزخيم السير وإعطائه الدفع فيكمل السالك طريقه على وضوح وبيّنة يحدوه أملٌ وشوقٌ إلى موعدٍ حميمٍ دائماً في القلب ودوماً في البال يعيش صوره الجميلة كل حين.

* * *

١٠ ـ اليأس في طريق السلوك لقرب الأجل وعلاجه

«وإن كان قد دنا أجلي ولم يدنني منك عملي فقد جعلت الإقرار بالذنب إليك وسيلتي».

إنّ غاية الإنسان التي أودعت معه منذ الجِبلة الأولى له هي السعي الدائم للتكامل ضمن القابليات المستودعة فيه من أجل أن يتعرف على الله وأن يتقرّب منه، وهذه الغاية هي الأمانة التي عُرضت على السموات والأرضين فأبين حملها وقد حملها الإنسان لأنّه من خلال الملكات الموجودة عنده يستطيع تحقيقها بينما باقي الموجودات لا تملك قابلية السلوك والسعي لبلوغ هذه الغاية القصوى بينما هذه الموجودات تخلق ثم تقضي فترة من الزمن ثم تفنى على نفس الحال التي خلقت عليها، أما الإنسان فلديه قابلية التغيّر والتطوّر نحو السلب أو الإيجاب نحو عالم الرحمن أو عالم البهيمية، والمطلوب منه حسبما أمره به خالقه أن يسعى ايجاباً نحو الرحمانية والكمال وهذا السعي يُفترض أن يتم من خلال العمر الذي قدّر ويقدّر لكل إنسان أن يقضيه على هذه المعمورة، وكما هو بيّن ومعروف أنّ عمر الإنسان على هذه الأرض قصيرٌ مهما طال، وقليلٌ مهما كثر وإنما هذه الدنيا أيامٌ وساعاتٌ قليلة تمضي ويمضي معها الإنسان إلى حتفه الذي لا بدّ منه، ومع هذه الحياة القصيرة فإنّ الإنسان لا يقدر فيها أن يمسك بزمام الأنفاس التي يطلقها ولا يستطيع أن يضمن توالي الثانية من الزمن بعد الأخرى، وهو يعيش رهينة ما تخبئه له الأيام والسنون،

والإنسان ضعيف لا يقدر أن يمتلك المبادرة في هذا العمر، بل العمر يشتغل فيه، وهكذا يصبح هناك تفاوتٌ واضحٌ بين الغاية الكبرى التي يجب على الإنسان أن يسعى ليصل إليها وبين الفترة الزمنية التي قد لا تخوّل هذا الإنسان إدراك هذه الغاية، مما قد يوقعه في اليأس الدائم لشعوره بعدم القدرة على إكمال المسير، وبأنه قد يأتيه الأجل كل ساعة، وقد يحط عليه الموت وهو في بداية الطريق أو في منتصفه ويشعر باليأس أكثر عندما يدرك بأنّ هذه الدنيا وحدها هي دار العمل والسعي والسير والسلوك وأنّه لا مجال للازدياد أو لاكمال السير وراءها أو خارجها وهنا يزداد اليأس والقنوط وتأخذ هذا الإنسان الحسرة وعدم الاطمئنان على سلوكه الذي قد تجرفه المنيّة وقد يمحوه انصرام الأيام وانقضاؤها، وقد حلّ سبحانه هذه المشكلة كي لا تبقى حجرة عثرة في طريق الوافدين إليه والسالكين نحوه، فقال عز شأنه وجلّ اسمه: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾**(٤) ومعنى هذه الآية بالإجمال أنه بمجرد أن ينوي الإنسان الخروج من مضائق بيت النفس الحرجة المكبتة للآمال والقاتلة للطموح ويضع قدمه في النقطة الأولى للانطلاق نحو الكمال المطلق والجمال اللامتناهي عندها يكون وكأنه قد قطع كل المسافة طالما نيّة الاكمال موجودة فإذا مات دون المسافة ودون النهاية فيكون أجره قد وقع على الله ولا خوفٌ عليه.

ومن هنا تنشأ أهمية التوبة الدائمة والاستغفار والإقرار بالذنوب والاعتراف لتكون وسيلة إلى رضا الرب مع عدم وجود الأعمال الصالحات، فمع اقتراب الأجل والأجل دائماً قريب ومع الإحساس بضياع العمر والعمر سريع يضيع دون من يمسك زمامه، يرى السالك نفسه مضطراً للاعتراف بذنوبه كوسيلة لمحو هذه الذنوب ولمحو آثارها وكي يكون هذا الاعتراف باباً إلى دوام قبول المولى عز وجل له في سلوكه. وبهذا الاعتراف وبهذا القبول تنجلي الظلمة ويذهب الغمّ ويزول اليأس ويستطيع الإنسان أن يُكمل بكل حماس، وبالزخم الكبير طريقه الطويل إلى الله.

***

(٤) سورة النساء، الآية ١٠٠.

١ ـ شعور السالك الدائم بظلم نفسه

«الهي قد جُرتُ على نفسي في الطلب لها فلها الويل إن لم تغفر لها».

النفس من أعزّ الأشياء على الإنسان فكيف يظلمها؟ وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه فكيف يجور عليها؟.

طلب أحد المؤمنين من الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري أن ينصحه فأرسل إليه أبو ذر قائلاً: «لا تُسيء إلى أحبّ الأشياء إليك» فتعجّب هذا المؤمن من هذه النصيحة وأرسل إلى أبي ذر يسأله عن هذه النصيحة فأجابه الصحابي أن نفسك هي أحب شيء إليك فلا تسيء إليها».

يقول أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل «الهي ظلمت نفسي وتجرأت بجهلي» كما يقول في هذه المناجاة «الهي قد جرت على نفسي في الطلب لها».

معنى الظلم للشيء هو تعذيبه من خلال تحميله ما لا يطيق. وظلم النفس يحصل من خلال تحميلها ما لا تطيق فكيف يحصل ذلك؟ عندما يدرك الإنسان بأنّ الأعمال السيئة التي تبدر عنه سوف تكون نتيجتها ناراً عرضها السموات والأرضون وفيها من صنوف العذاب والمرارات التي اعدّت للكافرين ما لا يستطيع الذهن البشري أن يتصوره أو ان يقف عند بعض أشكاله، هذا العذاب وهذا الألم الذي هو الصورة الحقيقية للأعمال السيئة التي يقوم بها الإنسان، لا تستطيع نفس هذا

الإنسان أن تتحمله، وبهذا تكون هذه الذنوب التي يرتكبها أحدنا مورداً لدخوله النار التي فيها العذاب الأليم الذي لا تطيقه النفس ويكون ارتكاب هذه الذنوب ظلماً للنفس لأنها تحملها ما لا تطيق وتوصلها إلى ما لا تقدر أن تتحمل.

وهذه الذنوب غالباً ما تكون من خلال هوى النفس وطلبات هذه النفس الأمارة التي تشد غالباً باتجاه التراب ونحو الدنيا، وهذه النفس التي تطلب الراحة والرفاهية والعزة والجاه والمال وغير ذلك من أصناف الحلاوة المصطنعة لعسل الحياة الذي تعلوه الأقذار، وبهذا يكون ظلم النفس من خلال السعي لتوفير الطلبات التي تطلبها تلك النفس والتي عادةً تنطبع بطابع الشهوات وحب الدنيا المزيّن للإنسان والذي ظاهره حلو وباطنه العذاب.

أما العدل والإنصاف لهذه النفس فيتم من خلال ايصال هذه النفس إلى الكمال والوصول بها إلى السعادة الدائمة المطلقة التي لا ينغّصها شيء ولا يعتريها الألم والشقاوة، إنها سعادة اللقاء، وإنه كمال الارتباط به، وهذه النفس لا تُنصف إلا إذا أخذت كيانها وحقيقتها وجوهرها، وجوهر هذه النفس مرتبط بالله، فلكي تأخذ حقيقتها هذه النفس يجب ربطها به سبحانه.

* * *

١٢ ـ السالك يرمق الآخرة ويخاف الفضيحة فيها

«إلهي لم يزل برك عليّ أيام حياتي فلا تقطع برّك عني في مماتي، إلهي كيف آيس من حسن نظرك لي بعد مماتي وأنت لم تولني إلاّ الجميل في حياتي إلهي تولّ من أمري ما أنت أهله وعدْ عليّ بفضلك على مذنبٍ قد غمره جهله إليه سترت عليّ ذنوباً في الدنيا أنا أحوج إلى سترها عليّ في الاخرى إلهي قد أحسنت إليّ إذ لم تظهرها لأحد من عبادك الصالحين فلا تفضحني يوم القيامة على رؤوس الأشهاد».

الإنسان دائم التطلع إلى الدنيا بغالبية أفراده، الذين هم غافلون عن الآخرة بالرغم من أن الدنيا التي هي محط آمالهم هي دار ممر بسيط، والآخرة التي هم عنها ساهون هي دار مقر دائم، ومن العقل والحكمة أن يضع الإنسان جهده ويبذل إمكاناته في سبيل تعمير وإشادة دار إقامته ولا يهتم إلا بالقدر البسيط لدار ممره، فليس من العقلانية أن يعبِّد الإنسان طريقه ويخرّب بيته حيث إقامته، ففي الطريق يمشي قليلاً وفي البيت يسكن ويكون ظعفه وراحته، ويمقدار ما تكون مدة الإقامة طويلة في البيت بمقدار ما يكون الإهتمام بتعميره، فكيف بالدار الآخرة التي هي المنزل النهائي للإنسان؟!

وهذه الدار لها طريقةٌ في العمران كما أن لها طريقة في الهدم، ولها سبيلٌ للبناء كما لها سبيلٌ للتخريب، وعمرانها بالخير والصلاح والصالح من الأعمال التي تنبعث من

روحية الطاعة والعبودية الحقة لله والسعي الدائم لبلوغ مرضاته، وخرابها يكون بالذنوب والمعصيات وعصيان الله والخروج عن فلك حبه ودائرة الإخلاص له وعن طريق السلوك اليه . . .

ومن النعم الالهية الكثيرة التي أفاض سبحانه بها على الإنسان أن الذنوب رائحتها لا تفحّ ولا تنتشر وإن المعاصي غبارها لا ينتشر ولا ينبعث من زوايا الإنسان ومن حواسه وجوانحه بل كل الآثار السيئة للذنوب تبقى في الصورة المثالية للإنسان في نفسه وقلبه وتنطبع على فؤاده رينـاً وصدءاً يحجب مرآة الحقّ ويكسر عرش الرحمن، وهكذا فإنّ الفضيحة لا تحصل في الدنيا فإنّ أكثر الذنوب هي ذنوب القلب التي غالباً ما تبقى مدفونة في زوايا هذا القلب ولا تظهر للعيان وهذا الأمر من الألطاف الالهية حيث ستر علينا ذنوبنا ولم يهتكنا في هذه الدار الدنيا، مع أنّ الهتك لو حصل في الدنيا لكان سهلاً وأثره بسيط، فهو هتك بين مجموعة قليلة من الناس وآثاره لا تتعدى خسران الدنيا مهما بلغت ويمكن تدارك هذه الآثار من خلال التوبة والرجوع عن العصيان إلى الطاعة، بينما هذا الهتك وهذه الفضيحة لو حصلتا في الآخرة لكانا وبالاً عظيماً، حيث كل الملء يشهدون، كل الآدميون ينظرون وهناك تهتك السرائر وتظهر المدفونات من نتائن الأفعال ومفاسد الأعمال، وهذه الفضيحة هناك في محشر القيامة لا تعوّض ولا يمكن تدارك آثارها فلا مجال للندم ولات حين مناص، وهكذا يطلب السالك دوماً من ربه أن يديم تفضله عليه فكما ستر عليه في الدنيا فليستر عليه في الآخرة وكما أخفى ذنوبه في هذه الحياة فليخفها بعد الممات.

***

١٣ ـ اللقاء الجميل الذي يسرّ السالك:

«إلٰهي فسرني بلقائك يوم تقضي فيه بين عبادك».

ويقول أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل:

«إلٰهي هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك..».

من أسمى المقامات يوم القيامة لقاء الله، بل هو غاية آمال العارفين ومنتهى تطلّع السالكين، حيث اللقاء الحميم والجوار الكريم لربّ العالمين وإنّ سرّ الوصول يكمن في الشوق الحقيقي للقاء الله، من هنا يصف الأمير (ع) في خطبة المتقين حالهم بأنّه لولا الأجل الذي كُتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين أبداً، شوقاً إلى اللقاء.

وإنّ أحلى ما في الجنّة أنها تمثل جنة اللقاء، وأن الخطاب فيها يكون معه سبحانه حيث السلام الدائم الأبدي ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾[٥]، وحيث رضوان من الله أكبر من كل النعم الجسدية أو غيرها، إنه اللقاء الذي أتعب السالك نفسه طوال حياته ليصل إليه إنه لقاء أغلى الأحبة وأسناهم، وهذا النزول في ساحة الربّ الرحيم يعبّر عن تمامية السلوك وعن الوصول والشهود وعن رضا الحبيب الذي لن يغيب عن السالك أبداً بعدما كانت المفردات المبعثرة لآخر مراتب الوجود ولأنقصها تفعل

---

(٥) سورة يٰس، الآية ٥٨.

فعلها في حجب أنوار الحبيب وفي عرقلة السلوك إليه .

ومع إدراك جمال اللقاء وإنه غاية ما يمكن بلوغه في رحلة المعرفة الشيقة والشاقة في آن معاً يسعى السالك ليحصّل دائماً الشوق ويسعى ليكون من المشتاقين ومن التائقين إلى ساعة الوصال وقد عبّر الإمام الصادق عن صفة المشتاق في مصباح الشريعة حيث قال :

«المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذ شراباً ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس ثياباً ولا يقرّ قراراً ويعبد الله ليلاً نهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه . . »(٦).

والشوق مبعثه الحبّ وكلما ازداد الحبّ ازداد الشوق، وكلما كان للحبيب موقعه الكبير في القلب كلما كان الشوق إليه أكبر، فيلبّي السالك حينها نداء الحب لله، فيحبّ الله كي يحبّه الله، ويتوق إلى لقاء الله كي يتوق الله إلى لقائه، ويتخلّى عن كل ما يشغله عن الله وكل ما يبعده عنه، ويرمي وراءه كل الهموم ويتفرد بهمّ السعي للوصول إلى المحبوب من خلال الشوق الدائم الذي يجعل الحبيب الكريم يتفضّل عليه ويشتاق إليه فيدعوه إلى لقائه . وقد عبّر الإمام الصادق (ع) عن المحبّ لله في قوله :

«حبّ الله إذا أضاء على سر عبده أخلاه عن كل شاغل وكل ذكرٍ سوى الله، والمحب أخلص الناس سراً لله وأصدقهم قولاً وأوفاهم عهداً وأذكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً وأعبدهم نفساً»(٧).

كيف لا وسرّ الحب يكمن في الطاعة، حيث الحبيب دائماً رهن إشارة حبيبه وهو دوماً شديد الحساسية في التعامل معه يخشى أن يزعجه أو ينفّره منه، يأتي بكل ما يقرّبه وما يقرّب الحبيب إليه ويبتعد عن كل ما يؤذي الحبيب كي لا يتأذى منه وهكذا تكون الطاعة عنوان المحبة، وكلما ازداد الحبّ ازدادت الطاعة وكبرت .

* * *

(٦) مصباح الشريعة ـ ص ١٩٦ .

(٧) مصباح الشريعة ـ ص ١٩٢ .

١٤ ـ قابليات الهداية والمعافاة:

«إلٰهي لو أردت هواني لم تهدني ولو أردت فضيحتي لم تعافني إلٰهي ما أظنك تردني في حاجةٍ قد أفنيت عمري في طلبها منك».

هذا في المناجاة الشعبانية، أما في القرآن الكريم فيقول عزّ شأنه: ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾(٨).

منّ الله سبحانه على الإنسان بأن خلقه في الظاهر والباطن بكيفية يستطيع من خلالها أن يؤدي الغاية المطلوبة منه سواءً على صعيد إعمار الكون أو على صعيد السعي لمعرفته والقرب منه سبحانه.

فقد خلق الله عزّ اسمه الإنسان ـ مخلوقه الفريد ـ وجعل لخلقه غاية تمثّلت بالقرب من الكمال المطلق للذات القدسية وذلك بالعبادة والعبودية الحقّة له سبحانه حيث قال: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾(٩) وتتمّ هذه العبادة وهذه العبودية من خلال الطاعة له بأداء ما أمر والانتهاء عمّا نهى والالتزام بالتشريعات الصادرة عنه، وقد وهب الله سبحانه لهذا المخلوق ـ الإنسان ـ قابليات وإمكانيات يقدر بها أن يحقّق الغاية المنشودة لخلقه فقد زرع فيه العقل المبدع الخلّاق والقادر

(٨) سورة طه، الآية ٥٠.

(٩) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

على استشفاف حقائق مكنونة ومخزونة في الكائنات وعلى اكتشاف أسرارٍ مودعةٍ في الطبيعة وقادر على اقتناص الحقائق الباطنة من خلال ظواهر الأشياء وهو من خلال الآيات المتدلية من السماء إلى الأرض، لديه إمكانية التحقق من وجود الصانع الذي حلّت عظمته في كل شيءٍ ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق**﴾[١٠]. وإضافة إلى العقل وهبه النفس الجبّارة الحاملة لأبدع مواصفات الإحساس والارتباط والتفاعل والتأثير والتأثر بما حولها ومنّ عليه أيضاً بالحواس والجوارح التي هي عبارة عن وسائل التقاط لظواهر الأشياء وهذا علاوة على القدرات الجسدية التي تخوّله القيام بالمسؤوليات المتنوعة على صعيدي الدنيا والآخرة وقد زرع الله سبحانه في الأرجاء كافة ما يدلّ عليه ويشهد على عظمته وعلى حكمته، وجعل إمكانية الهداية متوفّرة لبني البشر فأنّى يولّوا فثمَّ وجه الله، وأينما نظروا يجدون الله متجلياً بآياته وهكذا يكون سبحانه قد وفّر للإنسان القدرة على الهداية وعلى الاهتداء إليه، وها هو يذكّره كل حينٍ بذاته ويقرّبه الله ويبث فيه روح التطلّع إلى عالم الغيب ويقرّبه من الموت ومن معاده ويدني إليه الصورة المزيّفة للدنيا ولعالم الطبيعة ويأخذ بيديه إلى مشهد قصور الدنيا عن تحقيق الآمال العليا والأمنيات الراقية، ومع كل الطاقات التي وهبها الله لعباده لم يكلّفهم إلاّ ما وسعوا بل كلفهم دون ما يسعون وهذا يعني أن كل الأجواء المحسوسة وغيرها تشهد على حبّ الله الهداية لعباده ورجاؤه لهم إلى جواره وعدم إرادته الغواية والضلال لهم. فقد هيّأ لهم سبل الرشاد ودلّهم عليها وأرشدهم إليها والإنسان هو الذي يضلّ بنفسه من خلال ربطها بالدنيا والابتعاد بها عن الآخرة. وبما أنه أراد منذ البداية الهداية فلا بدّ أن هذه الإرادة مستمرة مع الزمن وترافق الإنسان في حياته، فيسعى السالك ليؤكّد هذه العزيمة الربانية التي شاء من خلالها سبحانه أن يدلّ عباده على الطريق إليه وأن يوفّر لهم سُبل الإيمان به.

* * *

(١٠) سورة فصلت، الآية ٥٣.

١٥ ـ كيفية الحمد لدى السالك:

«إلٰهي فلك الحمد أبداً أبداً دائماً سرمداً يزيد ولا يبيد كما تحبّ وترضى» الحمد هو الشكر الواجب لله على عباده لما منّ به عليهم من صنوف النعم الظاهرة والباطنة ﴿وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾(١١).

وهذا الحمد تتفاوت مرتبته بتفاوت مراتب العارفين بحق الله عليهم ومعرفة هذا الحق تختلف باختلاف مقامات السالكين وقربهم من مصدر النعم واطلاعهم على الفضل الإلٰهي الذي نزل بصورتها.

ولكلّ عارفٍ وسالك لسان حمدٍ خاص به، وتمامية هذا الحمد هو الاعتراف بالعجز عن الحمد، «إلٰهي كلما قلت لك الحمد وجب لي على ذلك أن أقول لك الحمد»(١٢)، وهذا الشعور بالعجز عن الحمد الحقيقي للذات المتفضّلة علينا ناتجٌ عن أمرين الأول أنّ القلب لا يحيط بكل النعم التي يجب الحمد عليها والثاني هو الحمد بلسانٍ أو بقلبٍ هما من نعم الله علينا فنحن نحمده بما يجب علينا الحمد عليه وهكذا يكون الحمد داعٍ إلى حمد آخر ويصبح الحمد المطلوب أن يحمد السالك به ربه هو الحمد الأبدي الدائم الأزلي الممتد من الأولية إلى الأخرية بعدد الأنفاس

---

(١١) سورة النحل، الآية ١٨.

(١٢) مناجاة الشاكرين للإمام السجاد (ع).

والرمال وما لا يعدّ ويحصى حمداً يُضاعف ويزيد ويتكاثر ولا يتناقص ولا يعتريه النقصان، وهذا الحمد بالطريقة التي يحبها الله ويرضاها لا كما هو العبد مؤهل للحمد، فالأهلية للشكر غير متحققة للعبد الذي في أعماله العصيان وفي موارده الغفلة عن الطاعة وكأنّه غير حامد بالفعل وإن كان حامداً باللسان، فهو يقول الحمد لله وفي العمل لا يطيع الله إذن هو لا يحمده، فالحمد إذا أراده العبد حمداً يجب أن يكون بلسان الله لا بلسانه، كما يحب الله لنفسه ويرضى لها من الحمد الذي لا يبلغ كنهه أمثالنا الناقصون العاجزون عن حمد مولاهم لأدنى آلائه عليهم فكيف يشكرونه بأتم النعم وأدومها وقد فسّر الإمام أبو جعفر الصادق (ع) معنى الشكر في مصباحه النوراني حيث قال: «وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة، يتعلّق القلب بها دون الله والرضا بما أعطى وأن لا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته، فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال. . . . وتمام الشكر الاعتراف بلسان العز خالصاً لله عز وجل بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق في الشكر نعمة مادية يجب الشكر عليها وهي أعظم قدراً وأعزّ وجوداً من النعمة التي من أجلها وفق له، فيلزمك على كل شكر شكراً أعظم منه إلى ما لا نهاية له مستغرقاً في نعمه عاجزاً قاصراً عن درك غاية شكره[١٣]، ويكفي هذا الكلام في التعبير عن الكيفية التي يفترض أن يحمد الله عليها وعن الشعور الذي من الواجب أن يلازم السالك في سلوكه مقابل آلاء الرحمٰن وأياديه.

* * *

(١٣) مصباح الشريعة ـ ص ٢٤.

١٦ ـ التمسّك بالصفات الإلٰهية وعدم الاتّكال على النفس وأعمالها:

«إلٰهي إن أخذتني بجرمي أخذتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أخذتك بمغفرتك، وإن أدخلتني النار أعلمت أهلها أنّي أحبّك، إلٰهي إن كان صغر في جنب طاعتك عملي فقد كبر في جنب رجائك أملي..»

الواضح من خلال هذا النص أنّ هناك اعتراف بالجرم وبالذنوب وباستحقاق دخول النار وبقلّة الطاعة وضعف العمل لدى السالك، ومقابل هذا الاعتراف ومن أجل سدّ النقص وجبره لا يعتمد هذا السالك على أفعاله وتقديماته من صالح الأعمال والعبادات وإنما يتّكل على الصفات الإلٰهية التي هي أصل كل خير والتي فيها الرحمانية المطلقة والموزّعة على كل شيء (اللّهمّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء)(١٤) فمنذ اللحظة الأولى كانت الرحمة حالةً متجسّدة في نعمة الإيجاد لهذا الإنسان من العدم، فالعدم ظلام والوجود نور والعدم لا قيمة له والوجود ذو قيمة، وقد وهبنا الله الوجود ومنَّ علينا به من ذاته وبالروح التي هي من شأنه وخواصّه، وهذه الرحمة لازمت مسيرة هذا الإنسان في حياته فانطبع كل أمرٍ بها وعلى كل الأحوال هناك ثلاثة أمور لا بدّ أن يلازما السالك:

---

(١٤) دعاء كميل.

ـ الأول هو الاعتراف بالخطيئة والذنوب وبأهلية النار.

ـ الثاني هو التمسّك بالصفات الإلٰهية التي هي أصل الخيرات ومنبع النعم والحمد يرجع إليها في إضفاء النور على الموجودات بالرحمة التي عمّت ووسعت كل شيء.

ـ الثالث هو إدراك العجز والضعف والنقص من خلال ما يقدّمه هذا السالك وعدم رؤية أي وزن وأية قيمة للأعمال التي يقوم بها فلا يستكثر شيئاً من عباداته ولا يستقلل أمراً من خطاياه.

١٧ ـ حسن ظن السالك بالله:

«إلٰهي كيف أنقلب من عندك بالخيبة محروماً وقد كان حسن ظني بجودك أن تقلبني بالنجاة مرحوماً».

من أهم الصفات في العلاقة مع الربّ الكريم هو حسن الظن به كيف لا وهو لم يعوّدنا إلا جميلاً ولم يرنا إلا حسناً.

و إن الله أخذ على نفسه أن يكون عند حسن ظنّ عبده به وقد أمرنا نحن العباد أن نكون عند ظن من يُحسن بنا الظن فكيف به وهو المتفضّل منذ البداية بالإحسان.

وقد ورد في إحدى القصص أنّ عبداً يؤتى به يوم القيامة وقد رجحت سيّئاته على حسناته ويُطلب من الملائكة أن تأخذ بناصيته وتجره إلى النار ويلتفت هذا العبد طالباً من الملائكة أن تسمح له بمخاطبة الباري عزّ شأنه فتسمح له فيقول لله: «إلٰهي ما كان هذا حسن ظني بك، فيقول الله سبحانه للملائكته ما أحسن هذا العبد بي ظنّه يوماً من ا لأيام ولكن لادّعائه هذا أدخلوه الجنة» كل الأقلام عاجزة عن التعبير عن مدى اللطف والعطف والسخاء والرحمة الإلٰهية الشاملة التي تغطي سماء المحشر وأرضه حيث يمدّ إبليس عنقه عندما يرى هذا المستوى من الشفاعة والرحمة الإلٰهية.

ومن علامات الموقنين حسن الظن بالله ومن لوازم ذلك عدم الأمن من مكر الله،

فحسن الظن داعٍ إلى الأمل والاطمئنان على السلوك وعدم الأمن من مكره داعٍ إلى الاجتهاد والطاعة الدائمين .

* * *

١٨ ـ قواطع السلوك وضرورة التنصّل منها:

«إلٰهي قد أفنيت عمري في شرّة السهو عنك وأبليت شبابي في سكرة التباعد منك، إلٰهي فلم أستيقظ أيام اغتراري بك وركوني إلى سبيل سخطك، إلٰهي وأنا عبدك وابن عبدك قائم بين يديك، إلٰهي أنا عبدٌ أتنصّل إليك مما كنت أواجهك به من قلّة استحيائي من نظرك وأطلب العفو منك إذ العفو نعتٌ لكرمك».

هناك جملة من الموانع التي تقف في طريق السالك إلى الله، ومن أهم هذه الموانع وأصلها هو الغفلة والسهو، لأنّ من غفل عن الله يكون قد غفل عن الهدف ومن غفل عن الهدف ضلّ عن الطريق إليه، وإن الغفلة ناتجة عن الانشغال بغير الله وبغير ما يُوصِل إليه، وذلك لأنّ قلب الإنسان واحدٌ ووجهة انشغالاته واحدة، وإذا حلّ في هذا القلب شيء فإنه لا يعد يتّسع لله، وقد ذكر سبحانه في هذا المعنى ﴿**وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه**﴾(١٥)، إنّما هو قلب واحد لله أو لغيره، والله لا يرضى أن يقيم مع غيره في مكان واحد، بل أراد هذا القلب عرشاً له.

ومن الموانع السكر بالطبيعة والاستغراق في الماديات وهذا السكر يؤدي إلى الغفلة وذلك لأنّ الانشغال بالملكات الموجودة بالدنيا يحرم هذه الملكات من حلاوة الانشغال بالآخرة وبذكر الله.

---

(١٥) سورة الأحزاب، الآية ٤.

ومن الموانع أيضاً الـركون إلى سبيل سخط الله أي الذنوب، فـالمعاصي هي عبارة عن موانع كثيفة وحاجبيتها نـاتجة من كونها تبعث بالسواد على القلب وهكذا يتراكم السواد والظلام على القلب حتى ينتكس رأساً على عقب فيخرج صاحب القلب من دائرة سلامة الطريق ويُحجب عن الهدف ويغفل عن الله وعن ذكره.

وهكذا تكون الموانع ثلاثة: الغفلة والسكر بالطبيعة والذنوب.

وعلى السالك أن يتنصّل دوماً من هذه العوائق التي تعرقل له السير إلى الله، وأن يعمل لاقتلاع هذه العوائق من خلال مضادتها بالأفعال التي تزيلها من الطريق.

فـدواء الغفلـة الـذكر فيشتغل السـالك بـذكـر الله والأنس بأسمائه وبصفـاتـه وبالأوراد التي تحبب إليه وتقرّب منه.

ودواء السكـر اليقظة من النـوم المتأتي من غبار الـدنيا وأبخـرة الماديات وهـذا لا يحصل إلا بالزهد والصروف عن هذه الدنيا وعن مفرداتها.

ودواء الذنوب التوبة والله يحب التوّابين، وطـوبى لعبد أتى يوم القيامة وتحت كل ذنبٍ من ذنـوبه استغفـار يمحـوه، والتوبـة هي فـرصـة المذنبين وهي باب النجـاة للعاصين.

فالموانع ثلاثة: غفلة وسكر بالطبيعة وذنوب.

والمزيلات ثلاث: ذكرٌ ويقظةٌ وتوبة.

* * *

١٩ ـ محبّة الله توقظ السالك وتساعده على إزالة العوائق:

«إلٰهي لم يكن لي حولٌ فأنتقل بـه عن معصيتك إلاّ في وقتٍ أيقظتني لمحبتك وكما أردت أن أكون كنت فشكـرتك بإدخالي في كـرمك ولتطهير قلبي من أوسـاخ الغفلة عنك» .

بعد معرفة قـواطع الطريق وقطّاعه وبعد معرفة ما يـزيل هذه القواطع فإنّ هناك صعـوبة مع هـذه النفس الأمّارة بـالسوء للقيـام بعملية الإزالـة فهناك الهوى الـذي ينبعث من حنايا النفس يشدّهـا نحو أمها الدنيا ويحبّب إليها زخـارفها ويقرّب إليها حلاوة الـراحة والسكينـة والجمال المزيّف للماديات وللممكنـات، وهكذا لا تكفي معـرفة القـواطع والمزيلات في أداء مـا يجب على السالك من قطع الحجب واجتيـاز العوائق بل يبقى محتاجاً إلى ما يقوّيه على هذا الفعل وإلى ما يوقظه على حلاوة الغاية التي سـوف يصل إليهـا من خلال التخلي عـن الدنيـا واختراق الحجب المتأتيـة من حبّها فإنّ حبّها أكثـف الحجب، وهذا المقوّي للسالك وهذا الموقـظ له هو حبّ الله والمحبة له، فها هو الأمير يعترف بأنـه لا حول له عن الانتقال من معصية الله إلاّ في الوقت الـذي أيقظه الله فيه إلى محبته، وهذه اليقظـة دليلٌ على إرادة الله لهذا السالك وعلى توفيقه له فيدخله بها في دار كرامته ويساعده على إكمال مشواره ويكون كما أراد الله وكما أحبَّ فيردّ السالك هـذا الجميل وهذه النعمـة بالشكر التـام الدائم لها لأنها من أجلّ النعم فهي تـوصل إلى النعيم الـدائم من خـلال تطهير القلب من أوسـاخ الغفلة عن الآخرة والأخذ بيد السالك للإكمال في هذه الرحلة الجميلة إلى الله .

٢٠ ـ المقام الأول للسالك استجابة النداء والطاعة:

«إلٰهي أنظر إليّ نظر مَنْ ناديته فأجابك واستعملتـه بمعونتك فأطاعك يا قريباً لا يبعد عن المغترّ به ويا جواداً لا يبخل عمّن رجا ثوابه».

إنّ المقام الأول الـذي يفترض السعي لبلوغه هـو التقوى وهـذه التقوى تتحصّل بأداء الواجبات كلّها وترك المحرمـات كلها وقد عبّر أمير المؤمنين (ع) عن هذا المقام بالطاعة الحقيقيـة لله هذه الطاعة التي تأتي بعد استجابة النـداء الذي هو عبارة عن الإسلام حيث يوجّه السالك كلّه نحو الله ويسلّم أمره كلّه لله ويقول وجّهت وجهي للذي فطّر السموات والأرض حنيفـاً مسلماً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحيـاي ومماتي لله ربّ العـالمين وبذلك أمـرت وأنا من المسلمين، وبعـد الاستجابـة لنداء الـولاية لله المعبر عنـه بالإسـلام أو بالإيمان الأولي، يتقـدّم السالك في سلـوكه ويترقى في معراجـه ليبلغ المقام الأول والمرتبة الأولى في رحلة المعـراج إنها التقوى التي تلازم السـالك. حيث يؤدي مـا افترضه الله عليـه وينتهي عما نهاه عنه. ويُعبّر عن ذلك بالطاعة التي تمثّل التقوى بعد الاستجابة للنداء التي تمثل الإسلام أو الإيمان.

٢١ ـ السلوك يتم بكل شرائر الوجود:

«إلٰهي هبْ لي قلباً يدنيه منك شوقه ولساناً يُرفع إليك صدقه ونظراً يقرّبه منك حقه».

إنّ السفر الصحيح هو السفر بكامل الزاد.

وإن الإقلاع السليم يكون بالآلة كلها. وكلما كان جزءٌ من المركبة غير ملتحقٍ بجسمها كلما كان في السفر ما يعيقه أو ينقصه.

والمصلّي لتكون صلاته تامة عليه أن يجمع كل جنود النفس والجسد ويضعها صفاً واحداً متراصاً، وتتم عملية جمع هذه الجنود في الصلاةمن خلال الآذان والإقامة ومن هنا كان استحبابهما المؤكّد في بداية الصلاة، حيث تكون هذه الجنود متبعثرةً في زوايا الحياة كلّ منها منشغل بما ينفعه من حطام الدنيا وبعد هذا التبعثر يقف الإنسان ليصلّي فكيف يصلّي وأجزاؤه متناثرة عليه أن يجمعها من الزوايا المتفرقة ويحصل الجمع بالآذان لها وبالإقامة لها، ويكون الآذان الجامع وتكون الإقامة صفارة الانطلاق بالرحلة.

والسلوك عموماً متجسّد في الصورة الصغيرة للصلاة من هنا أكّد العلماء الربانيون على أهمية الصلاة ومن هنا أيضاً وبالأصل كانت الروايات المميّزة عن الصلاة وأنها عمود الدين وإن قُبلت قُبِلَ ما سواها وإن رُدّت رُدَّ ما سواها، وأنها

معراج المؤمن والواضح أنّ المعراج فيه قوسان القوس الأسفل الدنيا والقوس الأعلى الآخرة ولقاء الله، وإنها قربان كل تقي وغير ذلك من الروايات، وليس ذلك إلاّ لأنها أي الصلاة هي صورة مصغّرة عن عملية السلوك الكبرى التي يسلكها الإنسان في مجموع حياته، ومن هنا كانت العلاقة واضحةً بين المستوى الإيماني للمصلّي وبين نوعية الصلاة التي يؤديها وخشوعه فيها، لأنّ مقام الصلاة يعبّر عن المقام الذي وصله السالك في سلوكه الكلّي.

وبما أنّ هذا السلوك المختصر والمعبّر عنه بالصلاة لا يتم إلاّ بكامل الملكات والجنود الباطنة والظاهرة فإنّ السلوك الكبير والرحلة الكبرى لا يتمّان إلاّ بكامل هذه الجنود أيضاً في الظاهر والباطن، ومن هنا يدعو سيد العارفين أمير المؤمنين (ع) بأن يهبه الله القلب السالك الذي يدنيه من غايته الشوق الذي يدفعه إلى حبّ اللقاء للحبيب والقلب يرمز إلى الملكات الباطنة للإنسان وهو يحكي عن النفس والقلب والعقل في آنٍ معاً، وقلب المؤمن عرش الرحمٰن، والقلب أحد خزاني العلم، وهو وحده مستودع العلم النوراني الذي يقذفه الله في قلب مَن يشاء، بعد أن يكون هذا القلب قد صفا من كدورات الدنيا وأصبح مخوّلاً لأن يستودع الله فيه كنوزه وودائعه وبعد أن يصبح مرآةً للصورة المطلقة للكمال المطلق لله عزّ وجل.

ويدعو (ع) أن يهبه الله لساناً يرفع إلى بارئه صدقه واللسان يحكي عن الملكات الظاهرة للإنسان وعن جنود جسده وهو أحد العناصر الأساسية في السلوك ويتوقف على حركته نتائج هامة تسهِّل أو تعسِّر السير.

ويدعو أيضاً أن يهبه نظراً يقرّبه إلى الله حقّه، وحقّ النظر أن يبصر حقائق الأشياء، أي أن يكون نيِّراً وواضحاً، قد اتّضحت له كل المسائل وبانت له كل المتشابهات هذا النظر الذي يجب أن يغضّ عن كل ما عدا الله، وأن يتطلع فقط بحقيته التي تعطيه القوة إلى الله فحسب وهذا النظر يحكي عن الجنود المتوسِّطة بين الظاهر والباطن، فتارة يعبّر بالنظر عن العين الناظرة المبصرة للماديات والمحسوسات. وتارة يعبّر عنه بالرأي أو بالبصيرة وهذا أقرب إلى الباطن.

***

٢٢ ـ حقيقة السالك في ارتباطه بالصفات الإلهية:

«إلٰهي إنّ من تعرّف بك غير مجهول ومن لاذ بك غير مخذول ومن أقبلت عليه غير مملول، إلٰهي إنّ من انتهج بك لمستنير وإنّ من اعتصم بك لمستجير وقد لذت بك يا إلٰهي فلا تخيِّب ظنّي من رحمتك ولا تحجبني عن رأفتك».

إنّ الوجود الإنساني هو وجودٌ ممكنٌ، وتابع للوجود الواجب الحقيقي لله العزيز القهّار، وهذا الوجود الممكن كان عدماً وهو بذاته ليس له جوهر وإنما حقيقته نابعةٌ من ارتباطه بالوجود المحض المطلق لله عزّ شأنه. وهكذا كلما اقترب السالك من جوهر الوجود كان تحقّقه بالوجود أتمّ وأقوى، وكلما ابتعد عنه اقترب من العدمية ومن الوهمية، ولكي يثبت السالك وجوديته عليه أن ينصرف عن عالم الإمكان للدنيا وماديّاتها ومفرداتها وأن يقترب من عالم الوجود الواجب الصرف صاحب الحقيقة لوحده والذي ما عداه وهمٌ وخيال والذي ما عداه ظلّ وجوده وهكذا يكون الشهيد الباذل لنفسه وروحه في سبيل الله حيّاً غير ميّت، لأنه طلّق عالم الإمكان للتراب واقترب من عالم الوجوب والحقيقة لله عز وجل فكان له هذه الحقيقة بأنه بات شاهداً وحياً ومن هنا كان الموت في سبيل الله يعبّر عنه بالشهادة التي تعني في اللغة الحياة الصرفة حيث الشاهد هو الحيّ المطلّع المراقب للأمور المبصر لها، ﴿**ولا تحسبنّ الذين**

قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[١٦]، وهكذا نجد أنّ العارف الذي تذوّق طعم الحقيقة من خلال شهوده ساحة اللقاء واقتباسه النور من معدنه لا يستوحش ولو فارقه الجميع ولو ابتعد عنه الجميع، بينما الذي اقترب من أصل الوحشة والظلام من الدنيا يستوحش بمجرد فراق شيء منها أو خسارة شيء، والعارف لا يعتبر الخسارة سوى حرمان بعضٍ من الذكر أو أنس اللقاء ولو لثانية لأنه يعلم بأنّ الحقيقة والوجود لا يتحققان إلا بلقاء الموجود الواحد بالحقيقة وهو الله، وهنا يكون من العقلانية بمكان أن يضع الإنسان همّه ويصب جهده في سبيل بلوغ هذه الحقيقة والاقتراب منها واقتباس الضوء من نوريّتها التي هي نور السموات والأرض والنور هو المعنى المطلق على الوجود فالله نور السموات والأرضين لأنه هو موجدها وبإيجاده لها أعطاها صفة النورانية لأنّ العدم ظلام والوجود نور، والعاقل الحكيم لا يألو جهداً إلاّ ويبذله في سبيل القرب من هذه الحقيقة ليثبت حقيقته فلا يفنى وفي سبيل التخلص من العدم المتأتّي من مضائق الدنيا كي لا يلحقه الانعدام.

وهكذا يقول أمير المؤمنين (ع) في معنى اقتباس الحقيقة من الله ومن صفاته:

إلٰهي إنّ مَنْ تعرَّف بك غير مجهول (وإن حاول البشر أجمعهم أن يستجهلوه أو يتجاهلوه) ومن لاذ بك غير مخذول (وإن خذله الجميع).

إلٰهي مَنْ انتهج بك لمستنير (ولو أعتمت عليه كل السبل والدروب) وإن من اعتصم بك لمستجير (ولو طرده الجميع).

ولذلك يقول أمير المؤمنين بما أن كل حقائق الجمال والجلال مأخوذة منك وموجودة فيك، يا إلٰهي إذن ما عليّ أنا الإنسان الذي أريد الخلود لنفسي إلا وأن أقترب منك فيقول وقد لذت بك يا إلٰهي فلا تخيِّب ظنّي من رحمتك ولا تحجبني عن رأفتك.

***

(١٦) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

٢٣ ـ زاد السلوك الحب لله والازدياد منه:

«إلٰهي أقمني في أهل ولايتك مقام مَن رجا الزيادة من محبّتك».

لكل سالك دربٍ غايةٌ تشدّه باتجاه نهاية دربه، تكون هذه الغاية بمثابة المحفّز والدافع لهذا السالك إلى قطع المسافات للوصول إليها، وكلّما كانت هذه الغاية عزيزةً على قلب هذا الساعي إليها كلما كان سعيه حثيثاً وبذله للجهد أكثر في سبيل البلوغ لها. وهناك نوعان من الغايات التي تشدّ الإنسان غاياتٌ مرتبطة بعالم الدنيا الذي تتوزع حاجات الإنسان فيه إلى مفرداتٍ عديدة متكثرة من المال والجاه والرفاه وغيرها، وغايات ترتبط بعالم الآخرة وما يتعلق بالسعادة الأخروية وبلوغ الخلود في النعيم، والسالك إلى الله سالكٌ إلى الآخرة مهملٌ للدنيا يحصّل منها ما يساعده على قضائها بشكلٍ سليم وما يخوّله أن يعمّرها تبعاً لاستخلافه عليها ويحصّل منها أيضاً ما هو ضروري لأداء الطاعة والمفترضات والواجبات وترك المحرّمات ويكون همّه وطموحه وغاية جهده في نيل الكرامة الكبرى والسعادة الدائمة في جوار ربّ العالمين وهذه الغاية وهذا السلوك إليها لا يتحصل إلا بالزاد الذي يشعل داخل الإنسان السالك ويلهّبه ليدفع به في الصراط المستقيم وهذا الزاد هو حب الله الذي إذا أضاء على سرّ العبد، أخلاه عن كل شاغل سوى الله ويصبح قلبه مشغولاً بالله ويكون شعار السالكين الحبّ لله وطلب الازدياد من هذا الحب الذي هو وقود المسيرة.

٢٤ ـ الأشواط التي سوف يقطعها السالك:

«إلٰهي والهمني ولهاً بذكرك إلى ذكرك واجعل همتي في روح نجاح أسمائك ومحلّ قدسك، إلٰهي بك عليك إلاّ ألحقتني بمحلِّ أهل طاعتك والمثوى الصالح من مرضاتك».

الطلب هنا بإلهام الذكر للسالك وأهمية هذا الذكر يكون في اجتياز الأسلاك الشائكة والصعوبات حيث الذكر هو سلوى وأنيس السالك في دربه وهو الذي يعينه على تجاوز كثير من المصاعب في الطريق وأهم هذه المصاعب والشوائك ما يتعلّق بحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة وبابٌ إلى كل مفسدة وكأنّ الدعاء بالإلهام للذكر هنا دعاءٌ بالتوفيق لقطع الحجاب الكثيف الأول الذي لا يُقطع إلا بالذكر وهو حجاب الدنيا الذي يُعتبر قطعه بلوغاً للمرتبة الأولى وقطعاً للشوط الأول من السير.

والدعاء الثاني هو جعل الهمّة والعزيمة والإرادة والقدرة والملكات الذاتية للسالك موجّهةً باتجاه روح الأسماء الإلٰهية والصفات الربانية التي هي عبارة عن الحجاب الثاني من الحجب الفاصلة عن الإنسان السالك وعن ربّه والفرق بينها وبين الأولى، أنّ الأولى حجبٌ ظلمانية متعلّقة بالتراب وحب الدنيا ، والثانية حجب نورانية متعلّقةٌ بالبرزخ وبعالم الأسماء والصفات وتحققاتها وتعيناتها التي تعتبر

روح هذه الأسماء ونجاح هذه الأسماء في تعيناتها وإشراقاتها الوجودية وإنتاجاتها في عالم الوجود في مرتبته ما قبل الأخيرة.

والدعاء الثالث هو جعل الهمّة أيضاً بعد قطع روح نجاح الأسماء في محلّ القدس الذي هو مصدر النور والإشراق وأصل الوجود الذي هو الفيض الأقدس الذي منه سرى الوجود فانبعث من زوايا العالم بصور شتى وبأشكال مختلفة من الأسماء والصفات وتعيناتها إلى الأفعال وأفرادها وهكذا كان الله كل يوم في شأن حيث هو في إيجاده للوجود في كل مرتبةٍ منه في شأنٍ وحال وشكلٍ وصورة تختلف بين المراتب.

والدعاء الرابع تأكيدٌ للثالث وهو الدعاء ببلوغ المرتبة القصوى وهي مرتبة أهل البيت حيث مقامهم الاسم الجامع ومعدن العظمة الذي هو محل أهل الطاعة والمثوى الصالح من مرضاة الله عز وجل.

***

٢٥ ـ اعتراف السالك بضعفه وقلّة حيلته:

«فإنّي لا أقدر لنفسي دفعاً ولا أملك لها نفعاً، إلٰهي أنا عبدك الضعيف المذنب ومملوكك المنيب المعيب فلا تجعلني ممّن صرفت عنه وجهك وحجبه سهوه عن عفوك».

من متمّات السلوك وضروراته أن يعترف السالك بحقيقته التي هي عنوان الضعف والنقص وقلة الحيلة، هذا الإنسان الذي إذا عُزلت عنه الكرامة الإلٰهية والرحمة الربانية الشاملة لكل شيء فإنه يمسي كالريشة في مهبّ الريح فهو لا يستطيع أن يأتي بالخير أو أن يدفع الشرّ ولا أن يقدّم لنفسه السّراء ولا أن يزيل عنها الضرّاء، فهو مرهونٌ لتصرف الزمان والأيام غير قادر على أن يقدّر لنفسه أو لغيره شيئاً، ومن الضروريات أيضاً على السالك الاعتراف إلى جانب الضعف بالذنب وبقلّة العمل وبكثرة الذنوب وبكثرة الخطايا والزلل وبأنّه معيبٌ مشين، وأنه قد هتك نفسه بالمعاصي وأنه مغلولٌ بالخطيئات، وأن نفسه مكبّلة بالمشينات من الأعمال السيّئة ومع ذلك يدعو الله عز وجل أن لا يصرف عنه وجهه أي أن لا يصرف عنه رحمته ونوره الذي به يهديه إلى التخلص من الذنوب والعيوب وبه يهتدي إلى سبيل النجاة وبه يتقوى على تصرفات الدهر وعلى تقلبات الدنيا وأيامها وما يجري فيها من أحوال وأهوال ويدعو الله أيضاً أن لا يحجبه السهو الذي يعكّر صفو الرحلة عن العفو الإلٰهي الذي لا يستطيع الإنسان بدونه أن يكمل بالشكل السليم

طريقه فهو دومـاً محتاجٌ إلى عفو الله الذي ينجيه من الذنـوب التي هي أحجار عثرة وبالنجاة منها يزيل الصعوبات فيكمل المشوار بسهولة .

***

٢٦ ـ كمال الانقطاع للسالك وكيفية تحصيله:

«إلٰهي هبْ لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك».

هدف الإنسان المؤمن في سلوكه أن يبلغ الانقطاع إلى الله بكامل وجوده المادي والمعنوي الظاهر والباطن حيث بذلك يكون قد أتمّ السلوك وحقّق الهدف المنشود، وهذا الكمال للانقطاع إلى الله هو الذي عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾[١٧] والدوام على الصلاة لا يعني مجرّد أداء الصلوات الخمس في أوقاتها أو بالطريقة الصحيحة عرفاً أو شرعاً أو أدباً وخشوعاً، وإنما المقصود كما هو بيّن في ظاهر الآية الكريمة من دون الغوص إلى عمق معانيها هو الدوام على الصلاة في كل لحظة وفي كل ثانية والصلاة تعني الصلة مع الله، والدوام على الصلاة يصبح دوام اتصالٍ مع الله في الأنفاس والخلجات والوجلات والحركات والسكنات وكأنّ العبد يصبح يصلّي صلاةً دائمةً متواصلةً لا انقطاع لها، والذي يساعده على هذا الدوام في الصلة مع الباري عز شأنه هو المداومة على الأعمال المستحبة التي تلازم كل عمل من أعمال الإنسان في حياته فهناك لكل حركات الإنسان آدابٌ ومستحبات وسننٌ من اللطيف أن يداوم المؤمن عليها وبمداومته عليها يصل أوقاته بالسنن والمستحبات التي هي مرتبطة بالله وبرضاه وبذلك تكون كل أوقاته عبادةً واتصالاً

---

(١٧) سورة المعارج، الآية ٢٣.

بالرفيق الأعلى، والذي يؤكّد هذا الانقطاع إلى الله هو النور الذي يقذفه الله ويبعثه في قلب السالك إليه ويكون دوماً أمام ناظريه يشدّه إلى معدن النور وأصله وكأنّ السالك دوماً ومن خلال هذا النور أمام ناظريه يتطلّع إلى الله وينظر الله بقلبه وبصيرته التي يساعدها هذا النور البسيط أمام الناظر فيكون مشكاة للقلوب لتحلّق إلى معدن الأنوار وفيضها.

***

٢٧ ـ تحقيق مراتب السلوك:

«حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقةً بعزّ قدسك».

أولاً: لا بد من الإشارة إلى أن السلوك يحصل بالقلوب لا بالأجساد وبالمعنى لا بالمبنى. بل إن الظاهر ينقاد للباطن بشكل طبيعي من دون أن يكون هو المقصود، وإنما هي القلوب السالكة السائحة إلى الله. من هنا يقول أمير المؤمنين (ع) حتى تخرق أبصار القلوب، أي الذي يمارس عملية اختراق الحجب هي هذه القلوب من خلال أبصارها التي تحصّل النور والبيّنة من التطلّع إلى شمس الأنوار المشرقة والباعثة لكل الأنوار.

ثانياً: نذكر بأنّ الأمير في مناجاته تحدّث عن الحجاب الأول الغليظ وهو حجاب الدنيا بأشكال وتعبيرات مختلفة بحيث أنه يصل إلى نهاية المقام ليقول بأنّه قد قطع السالك هذا الحجاب بنفسه وروّض نفسه على التقوى ﴿**إنما هي نفسي أروّضها بالتقوى**﴾[١٨] وبعد شغل النفس بالتقوى واجتياز مشكلة حب الدنيا يأتي دور القلب ليعمل في ساحته وهي ساحة البرزخ واختراق حجبه التي هي حجب النور وهكذا يبدأ مباشرةً في هذا الدعاء إلى ذكر حجب المرتبة الثانية وهي حجب البرزخ

---

(١٨)

المعبّر عنها هنا بالحجب النورانية أما في تحقيق نعتها بالنورانية فنقول:

إنّ النورانيـة مشتقةٌ من كلمة النـور وإنّ النور معنى يشتمل على دلالات متنـوِّعة وقـد أطلق النور على مـا يبيّن ويـوضح سـواد الطريق المادي والسبيـل الظاهـري أو الطريق والسبيل المعنويين، ومن هنا أطلق النـور على العلم الذي به يهتدي الإنسان في سفره المعنـوي كما في سفره المادي، وقـد كان العلم في المرتبـة الأولى والشوط الأول عبارة عن وسيلـة وسلاح للسالك من أجل التخلص من الحجـاب الكثيف فبالعلم الذي بـه يتحقق السالك من سخافـة الدنيا وزيفهـا يصل هذا السالك إلى الـزهد، وبالعلم الـذي به يدرك السالك مـرارات الذنوب والنتـائج الوخيمة لها يوم القيـامة يصل السـالك إلى التخلي عن هذه الذنوب على اختلافها، إلى ما هنالك من تفاصيل عبادية وأخلاقية تتأتّى عند السالك في مـرتبة سلوكه وسفره الأول من العلم الذي هو سلاحـه، أما في المرتبة الثـانية وبعد التخلص مـن حبّ الدنيا فإنّ هـذا العلم الذي كان وسيلة يتحوّل بنفسـه إلى حجـاب يحجب عن الباري عز وجل لكنّه حجابٌ من نوع آخر إنـه حجاب نوراني وهو أقلّ غـلاظة وكثافة من الحجـاب الأول، فالأول من الغبار والثـاني من النور وهكذا يتراكم العلم من المرحلة الأولى ليصبح حجـاباً حيث يعتبر السالك أن هذا العلم مـا زال وسيلة إلى الله وينظر إليه لأهمية تـوسطه فيحجبه هذا العلم عن الله فيصبح من الضروري على السالك أن يجتاز هذا الحجاب للعلم.

وبعد اجتياز هذا الحجاب النوراني للعلم الـذي هو نور، يصل الإنسان السالك إلى معدن العظمة الذي هو الاسم الأعظم الجامـع وهو مقام الكُمَّل من الأولياء وهو المقام الـذي اختص به أهل البيت (عليهم السـلام) ومن لحق وتبع بهم وبهداهم من العلماء الفضلاء الاتقياء الصالحين.

وبعـد الوصـول إلى معـدن العظمـة يكون قـد انتهى السلـوك وبلغ المنى، وكأنّ الأرواح عندهـا تصبح أطيافاً معلّقة بعـز القدس الذي يرمـز به أمير المؤمنين (ع) إلى الـذات وكأن السالك عنـدهـا أصبح يحفّ بها كطيفٍ يسبح في الـلاهوت نـوراً من الأنوار الشامخة.

***

٢٨ ـ المقام الثاني بعد استجابة النداء الصعق للجلال:

«إلٰهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جهراً».

في المقام الأول ذكر أمير المؤمنين (ع) مسألة التقوى التي هي عبارة عن الطاعة لله بعد استعماله الإنسان لمعونته، وهذه التقوى تأتي كمقام ثانٍ أعلى من مقام الإيمان والإسلام الذي هو عبارة عن الاستجابة للنداء الإلٰهي للشّهادة بربوبيته ولأداء حقه الواجب على العبد.

أما في المقام الثاني هذا فيذكر الأمير (ع) مسألة اليقين التي هي مقامٌ أسمى من التقوى وأرفع منه، والذي هو عبارة عن نهاية مطاف العبودية والطاعة والذي هو أصل كل مقام رفيع عند الله وقد تفاضل الأنبياء فيما بينهم بدرجة اليقين، حيث كلما ازداد اليقين ازدادت الكرامات وقد كان النبي عيسى (ع) يمشي على الماء وحسب قول الإمام الصادق (ع) أنه لو زاد يقينه لمشى في الهواء وهذا إشارة إلى اليقين الأعلى لمن تُطوى لهم الأرض لأنهم يكونون بذلك قد مشوا في الهواء والتعبير السلوكي لليقين هو الوصول الذي له بنفسه مقامات ودرجات، فاليقين ثلاث مراتب: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، واليقين اليقيني هو حقّ اليقين الذي يعبّر عنه أمير المؤمنين (ع) في حديث له «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» وهذا الحق لليقين

يعبّر عنه بالشهـود ولحاظ الجلال وتجلياته وكأنّ الله حينها ينظر إلى السـالك الشاهد الواصل فيصعق هذا السالك بجلال الله وهيبته وعظمته، وعند الشهود يخاطب الله عبده بلسان السر والإخفـات ويخاطب العبد ربّه بلسان الـرياء المعلن المتحدّث بين الملء الـواضح للعيان الـذي لا يقدر على التخفي، فـالله يناجي سراً والعبـد يعمل جهراً.

***

٢٩ ـ دور اليقين والمعرفة في السلوك:

«إلٰهي لم أسلّط على حسن ظني قنوط الأياس ولا انقطع رجائي من جميل كرمك، إلٰهي إن كانت الخطايا قد أسقطتني لديك فأصفح عني لحسن توكلي عليك، إلٰهي إن حطتني الذنوب من مكارم لطفك فقد نبّهني اليقين إلى كرم عطفك، إلٰهي إن أنامتني الغفلة، عن الاستعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة بكرم آلائك، إلٰهي إن دعاني إلى النار عظيم عقابك فقد دعاني إلى الجنة جزيل ثوابك». .

دوام حسن الظن بالله عند السالك من الأمور التي تساعد على ديمومة العطاء الإلٰهي الذي يكون عند حسن ظن عبده به.

وعدم اليأس من اللطف الإلٰهي والعفو الرباني يساعد على دفع الإنسان بالأمل لينشد العطايا الموعود بها.

ومع التوكّل على الله يستطيع السالك أن يتجاوز مشكلة الخطايا من خلال قدرة المتوكّل على الاستغفار وقدرة المتوكل على الله على الإتيان بما يعوّض هذه الذنوب من الأعمال الصالحات.

وأهم ما يساعد الإنسان وينبّهه في مسيرة سلوكه هما اليقين والمعرفة اللذان يمثّلان موعزين وواعظين ومنبّهين للإنسان السالك نحو عطف الله ونحو آلائه بعد أن يكون هذا السالك قد حطّته بعض الذنوب من مكارم لطف الله، وبعد أن تكون

الغفلة قـد أسكرته وأنـامته عن الاستعداد بـالزاد المناسب والضروري للقـاء الله يوم المعاد.

واليقين ورد بحثه هـو الشهود الحقيقي ولحاظ الـوجود الـواجب بكل جلالـه مما يؤدي إلى التنبّـه إليه و إلى نسيان غيره، والمعرفـة هي العلم بهذا الوجود وتحققـه لدى السالك بالكيفية التي يساعده فيها هذا التحقق على التنبّه والتيقّظ بعد الغفلة.

***

٣٠ ـ الحال السنية التي يطلبها السالك أثناء سيره:

«إلٰهي فلك أسأل وإليك أبتهل وأرغب أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعلني ممّن يديم ذكرك ولا ينقض عهدك ولا يغفل عن شكرك ولا يستخف بأمرك».

ويلخّص الأمير (ع) مطالبه السلوكية بالمواصفات التي يطلبها من الله عز وجل في خاتمة مناجاته والتي تختصر الحال السنية للسالك وبها أن هذه خلاصة المناجاة وخلاصة المطالب لا بدّ من التقديم لها لأهميتها بالصلاة على محمد وآل محمد ليؤكّد مقبوليتها وليختمها بخاتم القبول للأعمال وخاتم التزكية للأفعال وهو الصلاة على النبي وآله. أما هذه الحال السنية فنوجزها في أربع صفات:

الأول: دوام الذكر. وكما قلت سابقاً أنّ الذكر في موارده الأولى يساعد على اجتياز الطبقات الغليظة للأرض والتراب التي تمثّل الحجاب الأول، وكأن هذا الدوام للذكر تعبيرٌ عن حال السالك في السفر الأول.

الثانية: عدم نقض العهد. العهد مع الله هو بطاعته وعدم معصيته، بأداء ما أوجب والترك لما نهى عنه، وأيضاً عدم نقض العهد يرمز إلى المرحلة الأولى من السلوك التي يعبّر عنها بالطاعات ومزاولة العبادات والتي هي منطلقٌ إلى باقي المقامات فبدون العبادة الحقيقية يبقى السالك في مكانه ولا يتقدّم بأية خطوة إلى الأمام.

الثالثة: عدم الغفلة عن الشكر. والشكر تعبير عن البرزخية والمقام الثاني والمرحلة الثانية حيث تتجلى الأسماء الإلٰهية مع كراماتها والنعم والآلاء التي لها على الإنسان فيُطلب من هذا السالك عندها أن يشكرها.

الرابعة: عدم الاستخفاف بالأمر. فالله هو كل شيء، ومقامه فوق كل شيء وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو أكبر من كل شيء، وهذا يشير إلى المرتبة الأخيرة وهي الله أكبر أي أكبر من كل شيء ورؤيته فوق كل شيء وعدم الاستخفاف به أو بأمره.

***

٣١ ـ حال العارف المراقب للسالك:

«اللهمّ وألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً يا ذا الجلال والإكرام».

وتتلخّص الحال السنية والمقام الذي يريد السالك أن يبلغه وأن يبقى فيه وأن يحافظ عليه بأن يلحقه الله بنور عزه الذي هو منبع الأنوار وبالتحاقه به يصبح عارفاً لله مراقباً له ومنه خائفاً.

وهذه الحال للعارف المراقب عبّر عنها الإمام الصادق (ع) في قوله:

«العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سهى قلبه عن الله طرفة عين لماتَ شوقاً إليه، والعارف أمين وقايع الله وكنز أسراره ومعدن أنواره، ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه وميزان فضله وعدله قد غنى عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلا بالله، ومع الله ومن الله فهو في رياض قدسه متردّد، ومن لطائف فضله إليه متزوّد والمعرفة أصل وفرعه الإيمان»(١٩).

(١٩) مصباح الشريعة ـ ١٩١.

٣٢ ـ خاتمة المطاف:

وهكذا انتهى حديثنا في البارقات العرفانية التي لمعت للناظر القاصر مثلي وقد تجرأت على الحديث فيها آملاً من الله عزّ وجل أن يوصلني إلى معانيها وأن يبلغني المقامات العالية التي تضمّنتها هذه المناجاة العالية المقام، وأيضاً دفعني إلى البحث في هذه المناجاة ما قرأته عن تأكيدات سيد عرفاء القرون الأخيرة الإمام الخميني (قدس سره) على قراءة هذه المناجاة ومقطوعاتها، إضافة إلى أني لم أجد تفسيراً لهذه المناجاة باللغة العربية فشمّرت عن ساعد القصور وألقيت بالبراع في الدواة فكان الماء بدل الحِبر فلم يسفر القصور إلاّ عن قصور وبقي الماء عاجزاً عن الكتابة ولم يساعد البراع على أن يخطّ في الورق كلمات تدل على معاني، فكان كل ما بدر وظهر من يراعي فقاقيع ليس لها حياة مجرّد أن يُنفخ عليها تذوب وتنتهي، فبقيت في هامش الكلام والمفردات ولم يتسنّ لي أن أسبر أغوار المعاني فأرسلت مفردات ولم أرسل مضامين وتركت للمتعمّقين والعارفين بحق والسالكين بصدق والعابدين أن يأخذوا هذه المفردات التي كانت مجتمعة ففككتها ليتناولوها ويستفيدوا منها، وقد يكون هذا التفكيك هو كل الجهد الذي بذلته فأسأله سبحانه أن يمنَّ عليَّ بالإخلاص من وراء القصد هو مولاي عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم.

الفهـرس

١ ــ الاهداء ٣
٢ ــ المناجاة الشعبانية ٥
٣ ــ تحقيق الصلاة على محمد وآله ومقام أهل البيت عليهم السلام .. ٩
٤ ــ بداية السلوك صفر اليدين ١٣
٥ ــ أهم مقدمات السلوك ١٥
٦ ــ السالك تلازمه المراقبة ١٧
٧ ــ التوحيد الاسمائي وتحقيق مراتب التوحيد ١٩
٨ ــ مما يحصل التعوّد عند السالك؟ ٢١
٩ ــ استشفاف اللقاء وشهوده ٢٣
١٠ ــ اليأس في طريق السلوك لقرب الأجل وعلاجه ٢٥
١١ ــ شعور السالك الدائم بظلم نفسه ٢٧
١٢ ــ السالك يرمق الآخرة ويخاف الفضيحة فيها ٢٩
١٣ ــ اللقاء الجميل الذي يسرّ السالك ٣١
١٤ ــ قابليات الهداية والمعافاة ٣٣
١٥ ــ كيفية الحمد لدى السالك ٣٥
١٦ ــ التمسك بالصفات الإلهية وعدم الإتكال على النفس وأعمالها .. ٣٧
١٧ ــ حسن ظن السالك بالله ٣٩
١٨ ــ قواطع السلوك وضرورة التنصّل فيها ٤١

١٩ ــ محبة الله توقظ السالك وتساعده على إزالة العوائق ٤٣
٢٠ ــ المقام الأول للسالك استجابة النداء والطاعة ٤٥
٢١ ــ السلوك يتم بكل شرائر الوجود ٤٧
٢٢ ــ حقيقة السالك في ارتباطه بالصفات الالهية ٤٩
٢٣ ــ زاد السلوك الحبّ لله والازدياد منه ٥١
٢٤ ــ الاشواط التي سوف يقطعها السالك ٥٣
٢٥ ــ اعتراف السالك بضعفه وقلة حيلته ٥٥
٢٦ ــ كمال الانقطاع للسالك وكيفية تحصيله ٥٧
٢٧ ــ تحقيق مراتب السلوك ٥٩
٢٨ ــ المقام الثاني بعد استجابة النداء الصعق للجلال ٦١
٢٩ ــ دور اليقين والمعرفة في السلوك ٦٣
٣٠ ــ الحال السنيّة التي يطلبها السالك أثناء سيره ٦٥
٣١ ــ حال العارف المراتب للسالك ٦٧
٣٢ ــ خاتمة المطاف ٦٩
٣٣ ــ الفهرست ٧٠